٢ ـ أبو هلال العسكرى

بين البلاغة والنقد

للاستاذ عبده عبد العزيز قلقيلة

نشأة النقد وتطوره إلى عهد أبى هلال

لابد للأثر الأدبى فى نفوس الناس من صدى يتمثل فى استجابة عواطفهم له وتجاوب أفكارهم معه ؛ وقد يأخذ مظهر النفور منه والازورار عنه . ونتيجة هذا أو ذاك تلك الآراء والأحكام العامة بالحسن أو القبح ، والجودة أو الرداءة . وقد وجد عند العرب منذ الجاهلية نقد أدبى بهذا المعنى لم تكن له أسس أو أصول مقررة ، وإنما هو أحكام تقوم أكثر ما تقوم على التأثر والانفعال . حتى إذا كان القرن الأول الهجرى اتسع أفق النقد وجنح إلى شىء من الدقة وحاول أن يحدد بعض خصائص الصياغة والمعانى ؛ وما كاد هذا القرن ينتهى حتى ارتقى النقد ارتقاء محمودا ، وكثرت مواطنه فى البادية والحضر

ثم يكون القرن الثانى فنرى طائفتين لهما شأنهما فى النقد هما: اللغويون والنحاة . من أمثال أبى عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والمفضل الضبى . وقد سلك هؤلاء لونا جديدا من النقد تشعبت بحوثه وتنوعت ، وعرفت له مقاييس وأصول ، وابتدأت محاولات النقد المنهجى تظهر

فهذا « محمد بن سلام الجمحى » الذى عاش فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث يؤلف كتابه (طبقات الشعراء) يتكلم فيه عن الشعر الموضوع ، ويبرهن على وجود الوضع بأدلة عقلية ونقلية ، ثم يخلص إلى فكرته الرئيسية فى الكتاب وهى الحديث عن الشعراء وتقسيمهم إلى طبقات ، صادرا فى تقسيمه هذا عن مبادئ عامة اتخذها أساسا للحكم عليهم هى: كثرة شعر الشاعر وتعدد أغراضه وجودته ، متناولا فى ثنايا ذلك بعض الظواهر الأدبية وتعليلها من مثل : أثر البيئة فى لين اللسان أو غلظه، وفى رقة الشعر أو خشونته ، ومن مثل: قلة الإنتاج الأدبى فى بعض البيئات وكثرته فى البعض الآخر

أما القرن الثالث فقد كان خصبا حافلا بالرجال والأفكار ، إذ انضمت فيه إلى الجداول العربية الأصيلة من التفكير جداول أخرى من المعارف الأجنبية ، كان لها أثرها فى تشعب النقد واختلاف مشارب النقاد. فمن لغويين كالمبرد، إلى أدباء مثل عبدالله ابن المعتز ، إلى علماء أخذوا نصيبا يسيرا من المعارف الأجنبية يمثلهم الجاحظ وابن قتيبة ؛ إلى آخرين تأثروا كل التأثر بما نقل عن اليونان كقدامة، ومن أهم الكتب التى تصور هذه الاتجاهات كتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البديع لابن المعتز ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ونقد الشعر ونقد النثر لقدامة

أما كتاب الكامل فيفيض بطاقة كبيرة من النصوص الأدبية المأثورة حتى كانت تعجب الذوق العربى الخالص فى ذلك الوقت . ونرى مؤلفه — وهو أديب لغوى نحوى — يعالج هذه النصوص على طريقته العربية الخالصة فيشير إلى مافيها من «اختصار مفهم أو إطناب مفخم أو لمحة دالة » ويأتى بالأمثلة الكثيرة على «ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الرصف» وعلى « مايفضل لتخلصه من التكلف وسلامته من التزيد » ثم على « ما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ويحمد اختصاره » وهكذا . ويعجب المبرد بالتشبيه ،ولذا نراه فى الباب ٤٧ ج ٢ يطيل فى ذكر بعض مامر للعرب والمحدثين بعدهم منه، ويعلق على

وهب الله البلاد الرئيس والقائد اللذين أعدهما لحماية المظلومين من الظالمين . وإقامة الحكم الصحيح المنقذ للبلاد

فاليوم لا كلام إن لم يكن مسبوقا بالعمل أو مقرونا به .
لا كلام إن لم يكن توجيها صالحا أو تشريعا طيبا نافذا

إن الوقت أصبح غاليا جدا . وكم بذلناه وأفنيناه رخيصا . بل من غير ثمن !

وإذا حق لنشوة النصر أن تدفع القلم ليكتب . فإنى أسجل هذه العبارة الموجزة :

ليمض كل مصرى فى واجبه أمينا مخلصا ، فقد أتيح لكل مصرى أن يؤدى واجبه من غير التواء ولا انحراف

حامد سرور

الأمثلة بطريقته الخاصة محاولا فى ثنايا ذلك أن يلم ببعض النواحى النظرية فيه .

أما كتاب عبد الله بن المعتز فهو الذى حدد خصائص مذهب البديع وفصلها عما عداها ورد هذه الخصائص إلى التراث العربى القديم . وقد كان لهذا أعظم الأثر فى توجيه النقد وجهة تاريخية وحمل النقاد على اتخاذ التقاليد فى الشعر مقاييس لهم ؛ وكان هذا سببا فى أن عظمت العناية بمسألة السرقات الأدبية

وحين نصحب ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) نرى أنه رفض الأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بها ؛ بل بحث الموضوع من وجهة نظر عقلية بحتة ، ونجح فى هذا حتى إذا كان دور التطبيق وعمل الذوق الفنى أخفق . وقد تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب حسب الحسن والجودة فى لفظه ومعناه، ومثل لكل ضرب ، وقسم الشعراء حسب مافيهم من تكلف أو طبع ، وبين أن للشعر دواعى بحث البطىء وتبعث المتكلف، وله أوقات يبعد فيها قريبه ويستصعب ريضه ولا يعرف لذلك علة إلا من عارض يعرض على الغريزة ، كما أن له أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح أبيه . ثم يأخذ ابن قتيبة فى الكلام على الشعراء وترجمة حياتهم

أما الجاحظ فقد يكون أهم شخصية من شخصيات القرن الثالث ، وذلك لأن عمله مزدوج ، وقد برز تبريزا ظاهرا سواء فى البلاغة أو فى النقد . ففى البيان والتبيين يتحدث عن المعانى وتصورها واختلافها فى النفوس ، وأنها ما لم يعبر عنها موجودة فى قوة المعدومة ، وإنما تحيا بالتعبير عنها . وكيفية التعبير عن المعانى تجذبه إلى التحدث عن الألفاظ ، وإلى المقارنة بينها وبين المعانى ، وهذه البحوث من صميم البلاغة . لكنه مع ذلك يلاحظ ملاحظات ويبدى آراء على جانب عظيم من الأهمية فى الإنتاج الأدبى ونقده — منها :

(١) البعد عن الهوى والمحاباة . أى يدعو إلى أن يكون النقد موضوعيا معللا قائما على أسس تبعده عن التحيز والتعصب

(٢) الطبع والاستعداد . فهو يدعو من يأنس فى نفسه ميلا إلى الأدب أن ينمى هذا الميل ويلتمس له النماذج الرفيعة غير متهيب من إساءة ، ولا متخوف من نقد

(٣) رسالة الأدب ويرى أنها خلقية

(٤) عدم إذاعة الآثار الأدبية قبل التأكد من جودتها

وسنرى بعد أن هذا العمل المزدوج الذى اضطلع به الجاحظ كان شيئاً طبيعيا اقتضته روح العصر وتلك الحركة العلمية التى كانت فى عنفوان نشاطها لكنها كذلك كانت فى مراحلها الأولى

إلى الآن والنقد الأدبى إما عربى صرف ؛ أو عربى فيه لمحات خافتة من ثقافة اليونان لكنه عربى القواعد والتطبيق على كل حال . لكن مع هذا النقد أو بعده بقليل (فى الربع الأخير من القرن الثالث والثلث الأول من القرن الرابع ٢٧٥ — ٣٣٧) ألف قدامة بن جعفر كتابين : أحدهما فى نقد الشعر والآخر فى نقد النثر على اختلاف فى نسبة الثانى إليه

ذكر فى نقد الشعر أنه لم يجد أحدا وضع فى نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا مع أن الناس يخبطون فيه وقلما يصيبون . وكأنما ساءه هذا الإهمال وعز عليه أن يضل الناس فى نقد الشعر . فوضع فى ذلك كتابه ، وقد عالج الموضوع على طريقة ظاهرة التأثر بتفكير أرسطو . وأظهر أثر لكتاب الخطابة عند قدامة هو الكلام فى الفضائل النفسية التى جعلها أرسطو أمهات الفضائل . فقد نقلها قدامة إلى الشعر وربط معانيه بها وأدعم بينه وبينها الصلات

أما نقد النثر فإنه يستدرك به على الجاحظ « الذى لم يوف وصف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان » ولهذا راح قدامة يتكلم عن البيان والقياس والعبارة وما يتدرج تحتها من الاستعارة والأمثال وغيرها . بهذا ننتهى من القرن الثالث حتى إذا كان القرن الرابع رأينا حركة النقد تبلغ ذروتها على أيدى الآمدى والجرجانى وأبى هلال حيث تتسع دائرة التاريخ الأدبى وتقسيم الشعراء إلى طبقات

ويزداد الاهتمام ببحث موضوع التعبير الشعرى ومناقشة خصائص الأسلوب القرآنى وتظهر الكتب القيمة فى جميع هذه النواحى مثل : كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وديوان المعانى لأبى هلال فى تحليل البواعث الشعرية وتبويبها ، وتتجلى الموازنة بين الشعراء وتحديد منزلتهم الأدبية فى كتاب (الموازنة) للآمدى و (الوساطة) للجرجانى . كما يتمثل اقتراح البحوث

البلاغية التى بدأها قدامة وابن المعتز ، والبحوث القائمة على الذوق الأدبى فى كتاب (الصناعتين) موضوع البحث

تداخل البلاغة والنقد أمر طبيعى : —

سبق القول بأن كلا من البلاغة والنقد يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال فى التعبير الأدبى . وهذا العرض السريع لنشأة كل منهما وتطوره يوقفنا على تشابه هذه النشأة بل على وحدة الظروف التى خلقتها

وإذا فلم يكن من الغريب أن يلتقيا فى تطورهما أكثر من مرة على أيدى رجال موزعين بينهما أو قد أحاطوا بهما فتكلموا فيهما على اختلاف فى الميل إلى أحدهما أو زيادة فى الاهتمام به . وأرى أن طبيعة الثقافة ، وحاجة العصر ، وتقدم الزمن أو تأخره بالمؤلف ؛ كل ذلك شارك فى توجيهه ودفعه إلى هذا البحث الخاص من بحوث البلاغة أو من بحوث النقد أكثر مما كان عند هذا المؤلف من دوافع الرغبة والإرادة

فالمبرد : أديب لغوى ثم هو من صميم العرب ولم تطعم ثقافته بهذا اللون من ألوان الثقافة الأجنبية . ولذا نراه يتكلم فى البلاغة والنقد بروح اللغويين ، فما جارى اللغة وساير قواعدها فهو الجيد ، ولا يحتاج بعد هذا إلا إلى جزالة أو فخامة أو متانة حتى يكون بليغا . والبلاغة عنده تتراءى من بعيد فى الاختصار المفهم والإطناب المفخم واللمحة الدالة وفى التشبيه « الذى لو قال قائل إنه أكثر كلام العرب لم يخطئ »

وابن المعتز : ذلك الشاعر المطبوع ذوالذوق الخصب والملكة الموسيقية كان أديبا أنيق الصياغة والتصوير ، وإلى جانب هذا كان ذا قدم راسخة فى رواية الأدب ونقده . ولقد ألف فى ذلك كتبا منها (طبقات الشعراء) و (السرقات) . وله فى البلاغة والنقد كتاب البديع

والجاحظ الفحل : بسط جناحيه على معظم مسائل البلاغة والنقد ثم انتفض انتفاضة العبقرية والفن فكان كتابه الخالد « البيان والتبيين » .

وقدامة ينقد فيرده النقاد إلى البلاغة ، ويتكلم فى البلاغة فيرده البلغاء إلى النقد ، وبوسعنا أن نقول . إنه كان ناقدا وكان عالما بالبلاغة ولو أن نقده وبلاغته كانتا بحيث تغلب عليهما روح الفلسفة والمنطق

وهذا التداخل بين البلاغة والنقد أمر طبيعى بعد الذى علمنا من تقارب عمليهما وبعد ما كان من توحد بعض المؤلفين فيهما . دعا إلى ذلك وساعد عليه تكتل العلوم وجعلها بجاميع لذلك العهد . فقد كانت هناك علوم الدين من فقه وأصول وتفسير وحديث ووعظ . وعلوم اللسان من متن اللغة وتعريفها واشتقاقها وروايتها وبلاغتها ونقدها . وعلوم التاريخ العام والخاص . وعلوم أجنبية من فلسفة ومنطق ورياضيات . فكان الرجل يشتغل بمجموعة من تلك المجاميع فيشتهر بها ويؤلف فيها ؛ بل قد ساعد النشاط العلمى والتنافس بين البيئات المختلفة على إحاطة العالم بعلوم مجموعتين أو ثلاث

والآن لنتقدم إلى أبى هلال ولنصحبه فى كتابه (الصناعتين) لنرى حظ البلاغة منه وحظ النقد

(يتبع) عبده عبد العزيز قلقيلة

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول
من كتاب
وحى الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات
طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً
وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد